العلم والدين

أيهما يجب أن يكون ميزاناً للآخر

أ.د. سعيد رمضان البوطي

أستاذ في كلية الشريعة - جامعة دمشق

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلّ. ومن يضلل فلا هادي. والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبي العلم والرحمة وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد :

لعل من الضروري أن أشير بين يدي هذا البحث إلى تصور خاطىء يقع فيه كثير من الباحثين، بصدد الموازنة بين الدين والعلم.

ذلك هو تصور أن جوهر الدين والعلم يتنافسان دائما على خطين متوازيين، ينتهي كل منهما إلى غاية معينة!.. وطبيعي أن يستتبع هذا التصور من أصحابه عقد موازنة بين خطي العلم والدين، وأن يتساءلوا فيما بينهم : أيهما أجدى وأسلم، اتباع خط الدين أم التحول عنه إلى خط العلم؟.

فيثور من ذلك الجدال والخصام، ثم لا ينتهي الأمر بأصحاب هذا التصور إلا إلى أحد مذهبين، كل منهما يمعن في نقض الآخر وتسخيفه.

مذهب يرى تفضيل خط الدين على ما يقضي به العلم، ويرفع في سبيل ذلك شعاراً اسمه: «تخليص الدين من سلطان العقل»، ومذهب يرى تفضيل العلم على الدين، ويرفع في سبيل ذلك شعار العلمنة أو العلمانية. ويسمى أصحاب المذهب الأول في نظر هؤلاء: «اعتقاديين» لأنهم يجنحون إلى اعتقادات غيبية لا يدعمها العلم، بينما ينعت أصحاب هذا المذهب الثاني من قبل الآخرين بصفة الكفر والإلحاد، والتمرد على قدسية الأديان!.. ويعد كل من أوروبا وأمريكا الحلبة الواسعة الأولى لصراع هذين المذهبين.

وليس هذا الصراع إلا ثمرة لتصور أن الدين في جوهره (أي مهما كان نوعه) يسير على خط منفصل متوازٍ مع خط العلم وما يقضي به. ولا ينطلق معه من بداية ولا ينتهي معه إلى نهاية.

فلئن كان هذا التصور صحيحاً، فما من شك في أنّ على العاقل ألا يتردد في اختيار خط العلم وحكمه، وأن عليه أن ينبذ أي خط آخر منفصل عنه مهما

كان اسمه. ذلك لأن من أبرز سمات الإنسان أنه لا يخطو الخطوة الأولى في تعامله مع الكون، إلا بهدي من عقله. وإنما تتمثل روح العقل في العلم وحده.

ولكن هل صحيح أن الدين في جوهره، إنما يسير دائما على خط يوازي خط العلم؟

الحقيقة أن الباحث اذا أسلم عقله لقواعد العلم، وقيد نفسه بمنهجه وضوابطه، لا ينبغي عنه بديلاً ولا يتذرع به إلى هوى سابق يميل إليه، وواصل سيره على صراط مستقيم على هذا الأساس، فلا بد أن يسلمه هذا الصراط إلى ضرورة الخضوع لواقع لا مرد له. وهو بجملته ما نسميه بالدين ـ أي منتهى الانصياع والخضوع ـ بقطع النظر عن الدخول في تفصيل التعريف به أو الحديث عنه.

وإذن، فخطأ كبير ذلك التصور الذي يقضي بأن للدين سبيلاً مستقلة يناكب بها سبيل العلم. وخطأ أكبر أن نعقد أي موازنة بين هذين السبيلين الوهميين، لنهتدي إلى الأجدى منهما!. إذ لا ريب أن الميزان الوحيد أمام حركة الفكر الإنساني إنما هو العلم وحده. وليس للإنسان العاقل في نقض هذه الحقيقة أي اختيار.

غير أنا نقول من منطلق هذه الحقيقة ذاتها: إن على الإنسان إذا سار في سبيل العلم، ألا يقف منه عند أي مرحلة من مراحله أو ثمره من ثماره، بل عليه أن يواصل السير والبحث ليتبين النهاية التي سيسلمه إليها ذلك السبيل العلمي الهادي، مجرداً أنفسه عن أي عصبية لهوى من أهواء النفس، موطناً نفسه أن يستجيب لمقتضيات العلم ويخضع كيانه لأحكام تلك النهاية التي تقف عندها رحلة العلم أياً كانت.

فإذا فعل الانسان ذلك، فما من ريب أنه سيتلاقى وجهاً لوجه مع الدين الحق. وسيجد أنه الثمرة الأخيرة الكبرى لغراس العلم وشجرته الباسقة المتفرعة.

وما الذي يجب أن يصنعه الإنسان، إذا اكتشف هذه الحقيقة على درب بحثه العلمي؟

واضح جداً أن من مقتضى بحثه العلمي أن يدين بالـولاء لتلك الحقيقـة. وهذه الدينونة ليست بحـد ذاتها ممـارسـة لعمـل علمي، ولكنهـا تطبيق عملي لبعض مقتضياته.

إنك تسبر أغوار الأرض بالبحث العلمي، فتقع على ثروة في باطنها. فتقبـل عليها تستغلها وتستفيد منها. من الواضح أن هذه الاستفادة ليست بحـدّ ذاتها ممارسة علمية، ولكنها نتيجة منطقية للدراسة العلميـة. وكما أن من الخطـأ أن تضـع تجارتك بهذه الثروة على خط مستقل يوازي خط البحث العلمي في بـاطن الأرض، وأن توازن بينهما فتقول: إن البحث العلمي أجدى من السعي التجاري ـ كذلك من الخطأ أن تضـع الـدين الحق على خط مـواز لخط العلم، ثم تـوازن بينهما لتنتهي إلى أن العلم أفضل من الدين!..

* * *

ولكن ما الدليل على أن السير في ركـاب العلم، يهـدي صـاحبـه أخيراً إلى محراب الدين، ويفرض عليه الخضوع لسلطانه، وكيف يتم ذلك ؟

إن حديثنا هذا لا يتسع لإجابة مفصلة على هذا السؤال. إلا أنـه لابـد من بيان ولو كان موجزاً، تتضح به صلة العلم بالدين ويتجلى وجه العلاقة القائمة بينهما.

يجب أن نعلم قبل كل شيء، أن العلوم المختلفة ليست في حقيقتها إلا أجزاء لكل واحد!. لا يستقل بعضه عن بعض، فصلة ما بينها كصلة الفصول المتعددة من الكتاب الواحد، لا يتجلى في الذهن مضمون حقيقي لأي منها، إلا استناداً إلى معرفة ما تضمنته الفصول الأخرى.

فعلم الاجتماع مثلاً وثيق الصلة بعلم التاريخ. وعلم التاريـخ مـوصـول النسب بالتاريخ الطبيعي، وهذا بدوره شديد الصلة بالعلوم الطبيعيـة المختلفـة. وهذه العلوم ترسم بدورها إشارات استفهـام لا يتصـدى لها إلا علم الفلسفـة، وينتهي الأمر بهذا العلم والذي قبله إلى جدار هـائل لا يمكن اختراقـه، ألا وهـو جدار النواميس الكـونيـة الثـابتـة، والتي تـدور على محورهـا أحـداث الكـون وتطوراته. وهي نواميس لم ينل العلم منهـا حظـاً سـوى الـوصف لأغشيتهـا

ومرئياتها الظاهرة، دون أن يملك سبيلا إلى معرفة كنهها أو إلى أي تبديل أو تغيير فيها. وإليك الدليل:

لقد تقدمت المدارك البشرية العامة تقدماً كبيراً، ولقد تهيأ لإنسان الحضارة الحديثة من أسباب المعارف والعلوم ما خيل اليه أنه حقق حلما لم يتحقق لغيره من قبل. ومع ذلك فإن إنسان هذه العلوم كلها لم يستطع ان يزحزح شيئاً من تلك السنن والنواميس الكونية عن مكانه، فضلا عن أن يقوى على نسخه وتبديله.

فلا تزال شقة ما بينه وبين المشيب وضعفه كما هي، لم تسعفه علومه في إطالتها، فضلا عن أن تسعفه في القضاء عليه. ولا يزال على الرغم من كل المنجزات العجيبة التي وصل اليها، يموت كما تموت أي ذبابة ضعيفة في الكون، بل لا يزال أمد ما بين ولادة الإنسان وموته كما هي في جملتها. بدليل ما تلاحظه من أن كلمة «الجيل» لا تزال تحمل مدلوها اللغوي القديم: دفعة من البشر تمر فوق جسر هذه الدنيا ضمن ميقات زمني لا يتجاوز مئة عام تقريباً، أي إن شيئاً من العلوم الحديثة للطب والصحة ورعاية الحياة والأبدان، لم يسطع ان يتدخل لتعديل هذا الميقات الزمني المحدود لعمر الجيل. ولا يزال إنسان الحضارة والعلوم الحديثة اليوم مضطراً إلى محاكاة ما كان يفعله أجداده السابقون من قبل: يستجدي من السماء شرابه ومن الأرض قوته ومن ضروع الأنعام غذاءه. فإذا شح بالعطاء هذا أو ذاك، استبد به القلق، ونال منه الهلع، ووقع ضعيفاً بل صريعاً بين براثن الجوع والسغب.

ثم إن هذا الإنسان كلما التفت إلى ذاته يتأمل فيها، لم يدرك من هذه الذات إلا مجموعة ظاهرات وعلاقات تختفي وراءها أسرار عجيبة لا يخترق إليها علم، ولا يصل إلى كنهها سلطان جهاز ولا فكر. لقد بذل كل ما أمكنه من جهد في سبيل أن يعلم شيئاً عن حقيقة الروح التي تسري في كيانه، فانقلب من سعيه جاهلاً لم يأت بطائل. وأذعن الجميع بعد تجربة ومحاولة طويلتين بأن الروح شيء يستعصي على العلم وطبيعته، ويندّ عن فكر الإنسان وفهمه.

أجل، لقد أذعن بذلك حتى الماديون الذين قرروا ـ واشتهوا ان يصدقهم الواقع ـ أنّ الحياة من مادة انطلقت وإليها تعود. وإليكم ما يقوله الإمام الأول

للمادية الجدلية بعد ماركس، إليكم ما يقوله إنجلز في كتابه أنتي دوهرنغ: «إن العلم الطبيعي لم ينجح بعد في إنتاج الكائنات العضوية دون تناسل من كائنات أخرى، وفي الحقيقة أنه لم ينجح بعد حتى في إنتاج الهيولى البسيطة أو الأجسام الأحينية الأخرى من العناصر الكيميائية، وبالتالي فإنه ليس في مكنة العلم الطبيعي حتى الوقت الراهن أن يؤكد شيئا بخصوص أصل الحياة...»(١).

وينقل لينين تأكيدا لهذا الكلام عن فيورباخ في تعليقاته الفلسفية المشهورة(٢).

فإن قيل لعل هذه الحيرة كانت قبل أن تتقدم العلوم إلى الشأو الذي وصلت إليه فيما بعد. قلنا: إن العلوم تقدمت فعلا في كثير من المجالات، ولكنها فيما يتعلق بمسألة أسرار النواميس الكونية عموماً، وسر الحياة أو الروح خصوصا، لا تزال باقية عند حدودها السابقة القديمة بين الجهالة والحيرة.

لا أدل على ذلك من التقرير الذي انتهى إليه مؤتمر علماء الحياة الذي عقد حول مائدة مستديرة في نيويورك عام ١٩٥٩، أملاً في الوصول إلى فهم شيء عن أصل الحياة ونشأتها على الأرض. وكان فيهم العالم الروسي الكسندر ايفانوفيتش أدبارين، أستاذ الكيمياء الحيوية في أكاديمية العلوم السوفيتية.

لقد قرر المؤتمرون في نهاية بحوثهم بالإجماع، أن أمر الحياة لا يزال مجهولاً، ولا مطمع في أن يصل إليه العلم يوماً ما، وأن هذا السّر أبعد من أن يكون مجرد بناء مواد عضوية معينة وظواهر طبيعية وكيميائية خاصة(٣).

هذا كله إلى جانب ما يراه المتأمل في هذا الكون، من كثرة هائلة تنتهي من الانسجام إلى وحدة لا انقصام لها، ومن تلاق عجيب فيما بين مظاهرها المتنوعة على تحقيق غايات محدودة ضمن نظام دقيق لا يستقدم ولا يستأخر.

---

(١) أنتي دوهرنغ ترجمة فؤاد أيوب ص ٩٠.

(٢) الدفاتر الفلسفية : ٢ / ٥٧.

(٣) انظر خبر هذا المؤتمر في كتاب قصة التطور للدكتور أنور عبدالعليم ص ١١ ـ ٢٣ وانظر كتاب كبرى اليقينيات الكونية ص ٥٩ لصاحب هذا البحث.

حتى ألجأ ذلك أئمة المادية أن ينعتوا الطبيعة بالعقلانية، وأن يطلقوا على ما يبدو فيها من ظاهرة الغائية: عقلانية الطبيعة.

إذن، فالعلم يوصل الإنسان من خلال تبصيره بهذه الحقائق وغيرها، إلى يقين بأنه مقود في هذا الكون وليس قائداً، محكوم وليس حاكما، يتحرك ولكن بمقدار طول الزمام المثبت في عنقه، ويتصرف ولكن ضمن نطاق الحكم الذي أبرم في شأنه، ومن ثم فإن العلم يوصل الإنسان إلى يقين بأن من وراء هذا الكون مكوناً، أبدع نواميسه، فهو يمسكها من قدرته وتدبيره في قبضة عجيبة لا تغلب، وبأن ما يسمى بعقلانية الطبيعة ليس في الحقيقة إلا مظهراً لذاك الإله الذي دبر فأحكم تدبيره.

فإذا قرر العلم ذلك، فقد أسلمنا إلى يقين بوجود الله عز وجل، وإلى يقين بأنه موصوف بجميع صفات الكمال، منزه عن جميع سمات النقصان. ثم إن العلم يقف عند ذلك الحدّ ليدفعنا إلى مواصلة السير في الطريق.. وإنه الآن ليس الا طريق الاهتداء إلى ذات هذا الإله. والتعرف لمشيئته وسلطانه والاصغاء إلى أوامر وأحكامه.

وهكذا يتجسد ما أوضحناه من أن الدين الحق نهاية في طريق العلم، وليس خطاً يناكبه ويوازيه، وأن إقبال الإنسان إلى الدينونة له، ليس إلا تحصيلا لثمرة العلم. وهو يفوق في القداسة ممارسة أي جهد علمي بحدّ ذاته.

* * *

والآن، وقد أوغل الإنسان في الطريق الذي أسلمه إليه العلم ودفعه فيه، ألا وهو طريق الدينونة لسلطان هذا الإله الذي خلق فقدّر ـ بأي ضياء يجب ان يستعين ليضمن لنفسه سلامة المسير، وليطمئن إلى أنه لم يتنكب عن الجادة التي ترضي الله عزل وجل، وأنه لم يحش ذهنه بتصورات ومعتقدات لا أصل لها؟

والجواب أن الضياء والميزان هنا، لا يمكن أن يتمثل إلا فيما تضمنه خطاب الله عز وجل لعبادة من إخبارات وأحكام. وقد تلاحقت هذه الخطابات له على مرّ الأجيال والدهور عن طريق الرسل الذين اختراهم الله تعالى من

عباده ليبلغوهم أوامره وأحكامه. وكان آخرها وأشملها ذلك الخطاب الذي أنـزل على خاتم أنبيائه ورسله محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وهذه الخطابات تتضمن، في مجوعها، وبقطع النظر عن أيـدي التحـريف التي امتدت إلى كثير منها، حقائق اعتقادية واحدة لا تشـاكس فيهـا ولا تخالف. وهذا معنى كلام الله عز وجل في آخر ما أنـزل من الكتب وهـو القـرآن: «شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك، ومـا وصّينـا بـه إبـراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه..».

ثم ان هذا الخطاب الإلهي يبدأ فيأمر الناس جميعا بـأن لا يتعـرفـوا على شيء مما يريدون أن يستيقنـوه إلا بميـزان من العلم ودلائلـه، مهما كـان هـذا الشيء، ديناً أو غيره. إنه يخاطب الإنسان قائلاً: «ولا تقف ما ليس لك بـه علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنـه مسؤولاً»!.. وإنك لترى أن «مـا» من قوله : ولا تقف ما ليس لك به علم، أداة عموم، فهي تشمـل كـل شيء حتى الإيمان بالله وكتبه ورسله!.. وهكذا فإن الإسلام يرفض أن يقـام لـه ذاتـه أي بنيان في الفكر إلا على دعائم من اليقين والعلم.

ولما رأى علماء المسلمين أن القرآن يلزمهم بالاحتكام إلى هذا الميـزان دون غيره بصدد اعتناق أي مبدأ من المبادىء، بدأوا فوضعوا منهجاً علميا للبحث عن الحقيقة، ورسموا من خلاله قواعد علمية دقيقة للتفريق بين الحقائق وأشباهها، ثم عمدوا إلى القرآن ذاته فوضعوه قبل غيره في ميزان هذا المنهج، ابتغاء التـأكـد من مصدره، ومعرفة مدى احتمال أن يكون كلام أي بشر من النـاس، حتى إذا انتهوا إلى يقين علمي بأن هذا القرآن لا يمكن أن يكـون كـلام أي مخلـوق مهما كان نوعه أو بلغ شأنه، أسلمهم ذلك اليقين إلى الجزم بأنـه ليس إلا كما يقـول هو معرفاً بنفسه: «وإنه لتنزيل رب العالمين، نـزل بـه الـروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين».

ثم إن هذا اليقين كان لابد أن يسلمهم بطبيعة الحال إلى اليقين بكل ما قد تضمنه هذا الكتاب من إخبارات وأحكام.

وعندئذ، كان لا بدلهم من ان يضعوا منهجـاً علميـا آخـر مهمتـه تفسير النصوص القرآنية على وجهها العربي الصحيح. كي يصلوا إلى معـرفـة معـاني

النصوص القرآنية التي أرادها الله عز وجل. فاستخرجوا من قواعد العربية وأصولها منهجاً علمياً على غاية من الدقة والأهمية، وهو ذاك الذي يسمى اليوم بقواعد تفسير النصوص أو بقواعد أصول الفقه. وهو منهج يدين له بالفضل والولاء جميع علماء العربية وعلماء القانون في بلادنا العربية.

فعلى هدي من قواعد هذا المنهج، فسرّت نصوص القران، وتم التمييز بين محكمة ومجمله ومتشابهه وبين نصوصه القاطعة وظواهره المحتملة. وعلى أعقاب ذلك وصل علماء المسلمين إلى معرفة ما تضمنه كتاب الله تعالى من إخبارات تورث اليقين الجازم، وأحكام تتعلق بالأعمال والسلوك.

ثم لما كان من جملة ما أخبر به القرآن بيان نبوة الأنبياء الذين خلوا من قبل، ونبوة سيدنا محمد ﷺ الذي أرسله الله خاتما للنبيين إلى الناس جميعاً، وبيان ان من مهمة رسوله ﷺ تفسير غوامض القرآن وتفصيل مجمله، وأن على الناس أن يلتزموا بسنته فيجعلوا منها بياناً وتفصيلاً لمعاني القرآن ـ التفت العلماء إلى سنته ﷺ، وهي جملة ما تركه من أقوال وأفعال وإقرارات، مما يتعلق بالدين وتكليفاته، فحصّنوها ضمن نفق من القواعد العلمية التي تتعلق هذه المرة بضبط الرواية والإسناد، واستخرجوا لذلك فناً رائعاً، لا يزال إلى اليوم مبعث تعجب واعجاب لدى كل من يعنون بدراسة تاريخ الحضارة الإسلامية!.. إنه فن مصطلح الحديث وفن الجرح والتعديل.

فلقد كان من ثمرات هذا الفن أن صنفت الأحاديث النبوية إلى صحيحة وغير صحيحة، وقسّم الصحيح منها إلى آحاد يورث الظن القوي، وإلى متواتر يفيد الجزم واليقين، فاستبعد كل ما كان دون درجة الصحيح من النظر والاعتبار، واعتمد الصحيح بقسميه في نطاق الاستدلال على الأحكام العملية، واعتمد المتواتر منه وحده في نطاق العقائد والأمور المتعلقة بأصول الدين.

ثم إن الصحيح تم ضبطه بمراعاة شروط تتعلق برجال السند وبطبيعة المتن، لا مجال للحديث عنها في هذا المقام.

وهكذا بقيت السنة النبوية مكلوءة بعناية هذا المنهج العلمي الدقيق، وبقيت محاولات الدس والافتراء، بعيدة عن أن تدنو إلى صرح السنة الصحيحة

المطهرة، فضلا عن أن تندمج فيها أو تلتبس بها. إنك لتنظر، فتجد في بطون الكتب أخباراً كثيرة ساقطة، وإسرائيليات لا أصل لها. ولكنك تتأمل، فتجد بين الغثاء الباطل والسنة الصحيحة الثابتة حاجزاً حصيناً من الدلائل والضوابط العلمية لا يمكن اختراقه.

إذن، فإن صرح هذا الدين الذي أسلمنا إليه البحث العلمي الدائب، لم يقم في كل من أصوله ونصوصه ورواياته إلاّ على موازين علمية راسخة. ولقد أقيم في سبيل ذلك ثلاثة من المناهج العلمية الدقيقة:

أوّلها: المنهج العلمي العام للبحث عن الحقائق على اختلافها، وعمدته المنطق وأصول النظر.

ثانيها: المنهج العلمي الخاص بتفسير النصوص. وهو ما يسمى بقواعد علم الأصول.

ثالثها: المنهج العلمي الخاص بضبط الرواية والإسناد، وهو ما يسمى بعلم مصطلح الحديث وفن الجرح والتعديل. وفي مكتبتنا الإسلامية اليوم مؤلفات متنوعة في كل من هذه المناهج الثلاثة التي تعتز بها الحضارة الإسلامية أيما اعتزاز.

وإنما أجهد العلماء أنفسهم في استخراج هذه المناهج الثلاثة، امتثالا لقوله عز وجل: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ وحرصا على ألا يخطو المسلم خطوة واحدة في نطاق فكره أو سلوكه الديني إلا تحت مظلة واقية من ضوابط العلم وموازنيه.

* * *

ومع ذلك فإن بعض الناس يتوهمون بأن الدين قائم في جملته على الإيمان بغيبيات بعيدة عن ضوابط العلم وموازينه.

وإني لأقول: إن هذا الزعم في حق الإسلام لغو لا يتماسك عليه أي حجة علمية، وإن قائلة يجعل من نفسه أبرز مثال لمن يسلم يقينه حقاً إلى وهم غيبي، قفزاً فوق براهين المنطق والفكر.

إن كان مقصود هؤلاء الناس بغيبيات الدين أساسه الأول الذي يتمثل في الإيمان بوجود الله عز وجل، فقد أوضحنا ـ ولو بشكل موجز ـ أن سير العقل مع قواعد العلوم المختلفة لابدّ أن يسلم الإنسان أخيراً إلى اليقين بوجود الخالق عز وجل. وما ألحد الملحدون في ذات الله عز وجل، إلا بعد أن تمردوا على الخط الذي كان يدفعهم إليه المنطق العلمي، لاسيما فيما يتعلق بالدلائل التي تهدي إلى الايمان بالله عز وجل، وذلك لقرارات سابقة ألزموا بها أنفسهم، انتصاراً لهوى من الأهواء أو مذهب من المذاهب.

وإن كان مقصودهم بها ما حدثنا عنه كلام الله عز وجل ـ بعد أن آمنا ـ من أخبار النشأة الثانية بعد الموت، وأمر الحساب والميزان، والجنة والنار.. الخ فإن هذه الإخبارات ما استأهلت أن تحظى بيقين المسلمين، إلا بعد أن تم عرضها على ثلاثة موازين علمية، وأيدها كل منها أتم التأييد.

فقد عرضت قبل كل شيء على ميزان البحث في دلائل وجود الله الذي تعزى إليه هذه الاخبارات والأحكام، كما أوضحنا ذلك من قبل.

ثم عرضت على الميزان الذي من شأنه أن يكشف عن صدق نسبة هذا الكلام إلى الله عز وجل أو عدم صدقها.

ثم عرضت على ميزان ثالث هو قواعد تفسير النصوص ومنهجه، وذلك للتأكد من دلالات النصوص القرآنية والوصول إلى حقيقة المعاني المرادة منها.

فمنذا الذي يقدر العلم وسلطانه، ويرى قرار هذه المناهج العلمية الثلاثة في الإذعان لما تضمنته إخبارات القرآن وأحكامه، ثم يسعه أن يغمض العين عن ذلك كله، ثم يقفز من فوقه قفزاً ويتجاهله تجاهلاً تاماً، ليتسنى له أن يقف بعد ذلك فينعت المؤمنين بقرارات هذه المناهج بأنهم غيبيون لا يضبطون عقولهم فيما يعتقدونه بدلائل العلم؟

ترى ماذا تعنى كلمة «الغيبية» عند هؤلاء الناس؟

أهي غيبوبة العقل عن الفهم، أم غيبوبة العين عن الرؤية، أو الحس عن الإدراك. أم تراها من قبيل غيبوبة الواقع في تلافيف الماضي، أم غيبوبة الآتي في ضمير المستقبل؟

وأيّ هذه الغيبيات ترى تعد، بنظرهم، امتهانا للعلم وارتكاسا للفهم، أم هل إن جميعها محكوم عليه بالخروج عن قانون العلم وأحكامه، وكيف تم هذه الخروج؟

أليس من أخص واجبات هؤلاء الذين يتباهون بالعلم، أن يستعينوا بالعلم نفسه للإجابة على هذه الأسئلة وألا يكونوا غيبيين أو عشوائيين في اقتحام الأمر على غير بصيره ولا هدى؟

إن أحدهم ليسمع نشرة الأرصاد الجوية، وهي تخبر عما ستتعرض له البلاد من حرارة أو برودة، فيصدق الخبر ويستيقنه، ثم يمضي يأخذ للأمر عدّته، مع انه غيب لم يظهر له بعد!..

وربما نظر أحدهم في مجلة أجنبية، فوقع فيها على خبر عن جهاز عجيب تم اختراعه، تعاد به ذبذبات الأصوات القديمة إلى الأسماع، كأنها تنطلق من أفواه أصحابها من جديد. فيستقبل الخبر بكامل يقينه ويمضي يحدث الناس عنه كأن تحت يده ويراه بعيني رأسه، دون أن يسأل نفسه: كيف يصح له في قانون العلم الذي يعتز به أن يسلم بما لم تره عيناه، ولا علم له بكيفية منه ولا تحليل ولا تركيب، كل ذلك قفزاً فوق احتمالات الكذب في الإخبار واللبس في الموضوع والنقص في الشروط؟

ويشير الطبيب الذي يثق به إلى الكأس التي يدنيها من فمه، محذراً من شربها، لأن فيها شيئاً إن دخل جوفه هدده في حياته!.. فيقصي الكأس عن فمه ويرفع عنها يده ويستيقن أن فيها الهلاك. دون ان يتهم نفسه بالغيبية لأنه آمن بما لم يقع بعد، وتصور ما لم يولد بعد من غيبة المكنون، علاوة على أنه قد لا يعلم شيئا عن طبيعة ما في الكأس، ولم يطلع على شيء مما قد عرفه أو قدره الطبيب!..

ثم إن أي واحد من هؤلاء الناس ليفيض فؤاده يقيناً بأشياء لم يرها ولم يحسّ بها، كجدار الصين مثلا او تاج محل أو أهرامات مصر. بل إنه لو رآها بعيني رأسه ما ازداد يقينا بها.

فكيف يصح لهؤلاء الناس أن ينعتوا المسلمين بالغيبيين إذ صدقوا

بإخبارات الله عز وجل، وها هم أنفسهم لا يكادون يتحررون عن سلطان هذه الغيبيات ساعة من نهار؟

إنني لا استعجل فأعير هؤلاء الناس بالغيبية والاستغراق فيها، كما يعيرون هم المسلمين بذلك. ولكني أسألهم فقط: ما هو المنهج العلمي الذي اعتمدوه ـ وهم رجال علم ـ لليقين بتلك الأمور الغيبية التي ضربت المثل ببعض منها؟

إن هؤلاء الناس لو كانوا يقدرون العلم حقاً، لأدركوا أن الأمر في هذه المسألة قائم على منهج علمي ذي شروط وقيود. ولو أنهم كلفوا عقولهم تحمل بعض الجهد في معرفة هذا المنهج، إذاً لما أغمضوا أعينهم ووصموا اسلام المسلمين بالغيبية التي لا يعلمون عن مدلولها شيئاً.

وخلاصة الأمر إن المسائل المتعلقة بماض منصرم أو بمستقبل لم يقع بعد، لا يغني فيها برهان التجربة والمشاهدة. وإنما العمدة فيها الخبر اليقيني الصادق، وإنما يكون الخبر يقينياً صادقاً إذا توافر فيه شرطان اثنان:

أولهما: أن يكون مصدر الخبر موثوقاً به مقطوعاً بأنه أهل لأن يكون مصدراً له أمانة وعلمًا.

ثانيهما: أن يكون السبيل إلى ذلك المصدر سنداً من الرواة المتصلين إلى مصدر الخبر، على أن يكون كل حلقة في سلسلة الرواة جمعاً كبيراً من الناس يحيل العقل إمكان اتفاقهم على الكذب. فإذا تحقق هذان الشرطان فلا شك أن مضمون الخبر يصبح عندئذ حقيقة علمية لا مناص من قبولها واليقين بها.

وهكذا فان تواتر السند + توافر الصدق والأهلية بمصدر الخبر = يقينا علميا بالخبر الذي جاءك عن طريقه، على الرغم من أنه بحد ذاته أمر غيبي، أي خارج عن سلطان أي نافذة من نوافذ التجربة والمشاهدة.

فإذا كان هذا الكلام واضحاً، (وما إخاله يخفى على أحد) فان المسلم لا يحمله إسلامه على اليقين بأمر غيبي، إلا إذا كان خاضعاً لسلطان هذا القانون الذي فرغنا من إيضاحه. وما كان للإسلام الذي يقول دستوره: «ولا تقف

ماليس لك به علم» أن يكلف أتباعه بأنه يغمضوا العين وينفضوا الرأس ويبتعدوا عن العقل، ليحملوا أنفسهم على اليقين بمالا يعلمون.

ثم إنها لمفارقة مذهلة أن يصدق هؤلاء الناس خبر داروين مثلا عن أصل الإنسان، على الرغم من تحفظه وشكه في ذلك. كما صرح بذلك في كتابه أصل الأنواع أكثر من مرة(١) ثم لا يصدقوا إخبار الله عز وجل عن الإنسان بأنه إنما خلقه من صلصال من حمأمسنون وأنشأه في أحسن تقويم، على الرغم من النص القاطع الجازم بذلك. وكلا الخبرين ينطوي على غيب يجثم وراءه ماضٍ سحيق لا تطوله تجربة أو مشاهدة أو حس!.

ولكن أتريد أن تعلم سبب هذه المفارقة؟

السبب أن هؤلاء الناس آمنوا بداروين وأهليته وصدق فراسته وحدسه إيمانا غيبيا لا ترفده أثاره من علم، في حين أنهم لم يؤمنوا هذا الإيمان بالفاطر الحكيم جل جلاله على الرغم مما هو ماثل أمامهم من البراهين على ذلك. فآمنوا بحدس الأول وتخمينه ثم ذهبوا يسمونه علمًا. وأنكروا إخبار الخالق جل جلاله، ثم ذهبوا يسمونه غيبية وجهلاً.

إذن، ففرق ما بين المسلمين وهؤلاء الناس، ليس كامناً في أن أحد الفريقين ينحط إلى الإيمان بالغيبيات دون برهان علمي وأن الفريق الآخر يأبى ذلك تقديرا منه للعلم، ولكن الفرق مايلي:

المؤمنون بالله آمنوا بمصدر الخبر، ثم وجدوا توافر السند وارتفاعه إلى درجة اليقين، فآمنوا به علمًا وصدّقوه قانوناً، والتزموه حقيقة لا مردّ لها.. أما هؤلاء فقد جحدوا أو شكوا بوجود المصدر الأول وهو الله عز وجل. فلم يبالوا بعد ذلك أن يأتي سند الخبر متواترا أو مظنوناً، وجحدوا بالأمر كله من حيث جحدوا بالمصدر من حيث هو.

وحديثنا مع هؤلاء إذن، ما ينبغي أن يكون متعلقا بأمر الغيبيات وموقعها من العلم واليقين وإنما يجب أن يكون محصورا في البحث في الدليل

---

(١) انظر أصل الأنواع لداروين ص ٤١٢ و٤٤٧.

العلمي على وجود الله عز وجل. يليه البحث في النبوات وبراهينها، يليه البحث في أن القرآن هل هو كلام الله أم لا.. حيث نصل أخيراً إلى وفاق بأن هذا الذي يسمونه غيبيات لا يقرّها العلم، حقائق محفوظة في وقاية تامة من حصن العلم والمنطق لا ينفذ إليه أي موجب من موجبات الشك والارتياب.

* * *

وأخيرا هذا هو الإسلام :

قراره الأول والأخير، أن العلم الحقيقي هو الذي يجب أن يكون ميزاناً للدين، وليس العكس. فمن تدين محاكاة وتقليداً، فتدينه في ميزان التكليف الإلهي باطل. ومن اتخذ من شعار الدين ذريعة إلى مصلحة فهو صنو ذاك الذي اتخذ من الكفر والإلحاد ذريعة إلى مثلها.

ولكن اليقين العلمي الذي يهيمن على العقل، لا يستلزم دائما قدرة على التصور الذي يهيمن على الخيال. ذلك لأن القدرة على تصور الأشياء على حقيقتها، تظل دائما متخلفة عن الطاقة العقلية لإدراكها. أرأيت إلى الضرير الأكمة: إنه يدرك وجود الشمس المشرقة بعقله، ولكنه لا يقوى على تصورها في خياله، فلا يكون هذا العجز الثاني دحضاً لليقين الأول.

كذلك وجود الله عز وجل وما يتبعه من يقينيات متفرعة عن الإيمان به: لا مناص للعقل الحر من اليقين بهما. ولكن لا سبيل للخيال البشري إلى التقاط صورة صادقة عنهما.

ولهذا الإجمال تفصيل واسع هام، لا مجال لذكره في هذا المقام.

اللسان العربي والإسلام
معًا في معركة التحدي

أ.د. السيد رزق الطويل
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر

مقـــــدمة :

نحمد الله تبارك وتعالى ونستعينه، ونسأله أن يبصرنا بمواقع الصـواب، وأن يباعد بيننا وبين شهوات النفس، وضلالات الفعل، ونصلي ونسلم على نبيه ومصطفاه محمد بن عبدالله،، اختاره الله للرسالة الخاتمة، واصطفى لسان أمته لساناً للكتاب المبين، المهيمن على كل كتاب، والذي لا يأتيه الباطل من بين يـديـه ولا من خلفه، ونستفتح بالذي هو خير: (ربنا عليك تـوكلنـا وإليك أنبنـا واليك المصير).

وبعد

فقضايا المصير الإسلامي كثيرة ومتعددة، وملحـة من أجـل إعـادة هـذه الأمة إلى دينها القويم، حيث تستعيد في رحابه عزتها وكرامتهـا وأمجادهـا، غير أنه من بين هذه القضايـا تبرز قضيـة ذات بـال، تلك قضيـة اللسـان العـربي الفصيح، وما أصابه من ضعف واستعجام، إنها من أخطر القضايا في تاريخنـا الفكري على الصعيد الإسلامي.

وقد توفر أعداء الإسلام على تدبير خطتهم لقطع لسان هذه الأمة في إطار مزاعم إصلاحية حتى يصلوا من وراء ذلك إلى إبعـاد الأمـة عن دينهـا القـويم، وتراثها العظيم.

وباعثهم على ذلك فشـل تـاريخي ذريـع في القضـاء على الأمـة بـالغـزو العسكري.

ونضيف لذلك تعدد الناطقين بهذا اللسـان، وتكـاثـرهم خـارج الحـدود العربية، وانتشار الحرف العربي في كثير من بلـدان العـالم، واللسـان العـربي أقدم لسان على البسيطة، وقد استطاع أن يبقى حتى العصر الحاضر بينما ذبلت وانكمشت بل تلاشت كثير من الألسنة التي عاشت معه منذ أحقاب بعيدة سواء ما كان منها من دوحة اللغات السامية أم في غيرها.

والقضية التي أعالجها في هذه المحاضرة هي رصد ما وُجّه إلى اللسان العربي من حروب سافرة أو خفية، محاولا كشف ما وراءها من أهداف خبيثة، وأحقاد دفينة، وقبل ذلك سأكشف بإيجاز عن أبعاد العلاقة بين اللسان العربي والإسلام، وماله من مزايا وخصائص، واهتمام سلف الأمة باللسان العربي، بقدر اهتمامهم بإسلامهم، وكذا إدراك غير العرب لقيمة اللسان العربي، وشهادتهم له.

أما اتجاه الاستعمار الغربي لضرب اللسان العربي فيتطلب منا كشف البواعث والأسباب، وقيام المستشرقين بدور كبير في هذا الصدد، ومسيرة أذنابهم من بعدهم على نهجهم، ثم يأتي دور المقلدين.

واتسعت خطتهم فتهجموا على قواعد النحو، وارتفعت أصوات تدعو إلى تغريب الأدب.

وفي ختام الأمر نتساءل: ما معالم طريق العودة لنفيء إليه.

اللهم جنبنا الخطأ والزلل، واهدنا سواء السبيل، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

أ. د. السيد رزق الطويل
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

أبعاد العلاقة بين اللسان العربي والإسلام :

لقد هيأ الله الأسباب للسان هذه الأمة ليكون وعاء للكتاب العزيز، ثم ليكون الآية الدالة على أنه الكتاب الحق المنزل من لدن حكيم خبير.

وذلك بأن نزل بلغة قريش التي سادت لغات القبائل بحكم ما كان لها من سلطان ديني ممثلا في موسم الحج، وسياسي ممثلا في سدانة البيت الحرام والقيام عليه، واقتصادي ممثلا في الأسواق التي تقام في الموسم عند عكاظ ومجنة وذي المجاز، وكذلك في رحلتي الشتاء والصيف إلى اليمن والشام.

هذه المكانة هيأت لسانهم لكي ينمو ويسود، ويفرض نفسه على ألسنة القبائل لاسيما أن الشعراء الذين كانوا يعدون قصائدهم لإلقائها في مهرجان عكاظ الأدبي كانوا يتحرون لسان قريش ليكتب لشعرهم الذيوع والانتشار، والفوز بالجائزة في نهاية السوق.

وجاء الإسلام، ونزل كتابه الحق بلسان عربي مبين، يقول سبحانه: ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ ويقول جل شأنه: ﴿وكذلك أنزلناه حكما عربيا﴾ ﴿وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا، وصّرفناه فيه من الوعيد لعلهم يتقون، أو يحدث لهم ذكرا﴾ ﴿كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون﴾.

ماذا في هذه الشواهد من دلائل؟ ما معنى اقتران عروبة القرآن بالقدرة على التفصيل والبيان؟

إن الله تبارك وتعإلى لم يذكر في أي كتاب أنزله اللسان الذي نزل به، لم يأت ذلك إلا في القرآن الكريم، وقد نتساءل: لماذا؟ والجواب.. لأن لسان القرآن كان أداته وآيته التي قهرت المخالفين والجاحدين، وأقامت عليهم الحجة، وألزمتهم الجادة، وأبلستهم فانقطعوا عن اللجاجة، ومن هنا أصبح القرآن الكريم ولسانه حقيقة واحدة، لا ينفك أحدهما عن الآخر، ويُعْتَدى على أحدهما من حيث يُطْعن الآخر، ويستبين لنا ما في الكتاب من ذخائر العلم والمعرفة مادامت صلتنا وثيقة بلسانه.

وهكذا كان نزول القرآن الكريم بهذه اللسان يعني ما وصل إليه هذا اللسان من قمة السمو والنضج حتى شهد له بذلك الأعداء قبل الأولياء.

يقول فيليب حتي في كتابه تاريخ العرب: «قد لا يكون من بين البشر قاطبة من يستثيره التعبير، وتحركه الكلمة منطوقة كانت أم مكتوبة مثل العرب، إن من العسير أن تجد لغة من لغات العالم تَحْظى بهذا التأثير الذي لا يقاوم على عقول أصحابها، إن الجمهور العربي المعاصر سواء في بغداد أم في دمشق، أم في القاهرة يحرك وجدانه إلى أقصى درجة ممكنة إنشادُ قصيدة ما، وإن يعذر عليه فهمها كاملة... إلى أن يقول: إن للإيقاع الشعري والموسيقى والتناغم بين أجزاء الكلام ما للسحر على نفوس هذا الجمهور العربي، بل هو ما يسمى بالسحر الحلال».

وهذا روفائيل بتي يعبر عن آرائه ومشاعره الخاصة نحو اللغة العربية بعد أن أجاد تسع لغات هي: العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والهندية والآرامية والعبرية والفارسية والروسية في كتابه The Arabes men الصادر سنة ١٩٧٦ في نيويورك ص ٤٨: «إنني أشهد من خبرتي الذاتية أنه ليس ثمة بين اللغات التي أعرفها لغة تكاد تقترب من العربية سواء في طاقاتها البيانية أم في قدرتها على أن تخترق مستويات الفهم والإدراك، أن تنفذ وبشكل مباشر إلى المشاعر والأحاسيس، تاركه أعمق الأثر فيها، وفي هذا الصدد، فليس للعربية أن تقارن إلا بالموسيقى».

لو أضفنا إلى ذلك الحرف العربي الذي رسمت به كلمات هذا اللسان فإننا نجد في هذا الحرف إمكاناتٍ فنية وزحرفية هائلة بجانب يسره وسهولته وقلة الجهد الذي يبذل معه، وأنه اختزالي بطبعه ويشهد لهذه الحقيقة أحد المستشرقين.

يقول المستشرق «ريتر» أستاذ اللغات الشرقية بجامعة استانبول، وهو من المخضرمين، أعني الذين حاضروا في الجامعة قبل حركة كمال أتاتورك وبعدها: «إن الطلبة قبل الانقلاب كانوا يكتبون ما أملي عليهم من محاضرات بسرعة فائقة؛ لأن الخط العربي اختزالي بطبعه، أما اليوم فهم لا يفتأون يطلبون إعادة العبارات مرارا، وهم معذورون فيما يطلبون؛ لأن الكلمة اللاتينية لا اختزال فيها.. ثم أضاف قائلاً إن الكتابة العربية أسهل كتابات العالم

وأوضحها، فمن العبث إجهاد النفس في ابتكار طريقة جديدة لتسهيل السهل، وتوضيح الواضح»(١).

وانتشر اللسان العربي بانتشار الإسلام، وترك كثير ممن اسلموا لسانهم واستبدلوا به لسان القرآن الكريم بل توفروا على رعايته والعناية به، وتقعيده، وهم ليسوا من أهله كما تصدى أبناء هذا اللسان لموجات اللحن التي أخذت تتسرب بعد الفتوح، واختلاط العرب بغيرهم.

وهؤلاء جميعا يسرهم الله لهذا الأمر؛ إذ تكفل بالحفاظ على كتابه، وهذا يعني الحفاظ على اللسان الذي نزل به؛ يقول سبحانه: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

وثمة ملاحظة دقيقة هي أن الآية سَمَّتْ القرآن الكريم ذكراً، ولا ذكر بلا لسان يَذْكر ويذكِّر، ويقدم للعقل مابه يتذكر.

واستمرت جهود العلماء تدرأ عن اللسان العربي آفات العجمة، وما نشأ عنها من لغات عامية ورصدوا هذه الظاهرة، وكتبوا مؤلفات فيما تورط الناس فيه من أخطاء سواء أكانوا من العوام أم من الخواص، فوجدنا كتبا تؤلف في لحن العامة، مثل: لحن العامة للكسائي، ولحن العامة للزبيدي، كما ألف فيما بعد الحريري كتابه درة الغواص في أوهام الخواص.

خطة لضرب اللسان العربي :

وبسط الاستعمار الأوروبي سلطانه على كثير من البلاد العربية والإسلامية، ووضع خطة محكمة لاحتواء هذه الأمة، وضرب الثغور التي تحميها، ووضعوا في اعتبارهم أموراً ثلاثة:

أ ـ الدين الذي تتمسك به هذه الأمة، وكتابها الحق الذي تحرص عليه.

ب ـ لسانها الذي عرفوا قدره وشهدوا له بقيمته.

---

(١) مجلة الأمة ص ٧١ عدد جمادى الاولى ١٤٠٤ نقلا عن محاضرة عن الخط العربي وتطوره للخطاط المصري سيد إبراهيم بتاريخ ١٩٧٧/١٢/٢٩.

جـ ـ وضعوا في اعتبارهم تجاربهم الفاشلة في الصراع المسلح مع المسلمين في فترات مختلفة.

وهداهم تفكيرهم إلى ضرب اللغة عن طريق الدعوة إلى العامية.

وهذه بعض أقوالهم في هذا الصدد

يقول القس زويمر في مطلع القرن العشرين: إنه لم يسبق وجود عقيدةٍ دينيةٍ، مبنية على التوحيد أعظم من عقيدة الدين الإسلامي الذي اقتحم قارتي آسيا وإفريقيا الواسعتين، وبث في مائتي مليون من البشر عقائده، وشرائعه، وتقاليده، وأحكم عروة ارتباطهم باللغة العربية».

وكلمة هذا القسيس لا يريد بها الشهادة بالفضل لأهله، وإنما يريد أن يحذر قومه ليمعنوا فيما يكيدون، ويعدوا خطة للمواجهة.

ويقول وليم جيفور بلجراف: متى توارى القرآن ومدينة مكة من بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه».

وبالطبع لا يمكن أن يتوارى القرآن إلا بالقضاء على لغته.

أما الخطوات التي طرحت للتنفيذ، فتتناول:

ـ الدعوة إلى العامية.

ـ الدعوة إلى مايسمى باللغة الوسيطة.

ـ تعبيرات خبيثة طرحوها عن طريق عملائهم على الساحة الإسلامية والعربية.

ـ الدعوة إلى الكتابة بالحرف اللاتيني.

ـ الدعوة إلى تجديد النحو وعلوم اللغة والأدب، أو قل: تغريب الأدب

واتبعوا الوسائل التالية :

ـ استعانوا بمدارس التعليم الأجنبي المنبثة في أنحاء العالم العربي، بجانب المراكز التبشيرية.

ـ الصحافة.

ـ الدعوة إلى الاستغراب، وأن نرتبط بثقافة اليونان، وحوض البحر المتوسط.

والذين قاموا بالتنفيذ.

ـ المستعمرون أنفسهم.

ـ طائفة الأذناب والعملاء.

ـ المقلدون، المفتونون بظاهر مدينتهم.

ونريد أن نقول: إن هذا المخطط العدائي قيض الله من أبناء الأمة من كان يتصدى له عندما تشتعل ناره، ويرتفع أواره.

المعركة بين العامية والفصحى :

بدأت ملامح هذه الدعوة من خلال سطور كتبها رفاعة الطهطاوي بعد العودة من فرنسا في مطلع القرن التاسع عشر، مأخوذا ـ بحسن نية ـ إلى هذا الاتجاه المدمر، يقول: إن اللغة المتداولة في بلد من البلاد، والمسماة بالدارجة التي يقع بها التفاهم في المعاملات السائرة، لا مانع أن يكون لها قواعد، قريبة المأخذ تضبطها، وأصول على حسب الإمكان تربطها، ليتعارفها أهل الإقليم حيث نفعها بالنسبة إليهم عميم..»(١)

رحم الله الشيخ رفاعة! ما معنى تقعيد اللغة الدارجة؟ وما النفع العميم؟ وماذا يراد بالتصنيف بها؟ إنها لمأساة فعلا أن يتورط هذا الرجل فيما دبره القوم.

ولم يكن لكلمات الشيخ صدى يذكر؛ لأن القوى الوطنية أحسنت الظن بالشيخ، وأنه لا يريد النتيجة التي توحي بها كلماته.

لكن كان يقبع في جدران دار الكتب المصرية ألماني خبيث نزل مصر، وتعرف على الأحياء الشعبية واسمه: (ولهلم سبيتا) ألف كتابه الذي سماه:

---

(١) راجع كتاب رفاعة الطهطاوي، أنوار توفيق الجليل فيما يخص إصلاح اللغة.

قواعد اللغة العامية في مصر، وكأنه بهذا التقعيد للعامية يريد تأصيل الضلال الذي توفر عليه القوم.. وفي مقدمه كتابه هذا يرجع أسباب التأخر في مجالات عدة في مصر والعالم العربي إلى وجود هوة واسعة بين لغة الحديث ولغة الكتاب، ويشبه الفصحى باللغة اللاتينية بالنسبة للغات الحديثة في أوروبا.

وهكذا أوغل الرجل في الوهم، واشتط في تصوراته الفاسدة، وأقحم نفسه في أمر لغة لا يحسن خصائصها، ولا سبيل له لإدراك محاسنها، إنه يبدي حرصه على تطوير الأدب العربي وتنميته خلال العامية، ولكن الواقع يصفعه بقيام نهضة أدبية في ميدان الفصحى مع بدايات القرن العشرين.

وتأتي حركة المقتطف عام ١٨٨١.

قامت حركة المقتطف في بيروت أول الأمر تردد ماقاله «سبيتا» في القاهرة، وللمقتطف والمقطم وأصحابهما فيما بعد دور بارز في تمجيد الاستعمار، ومعاداة الحركة الوطنية، وكانت حركة بالغة السوء تخدع الناس بأوهام استعمارية زائفة، وأنها صدرت عن عربي يملك عروبة اللسان دون الفكر، كما قال المتنبي :

عربي لسانه، أعجمي رأيه، فارسية أعياده

لكن ما يكاد يخرج المقتطف على الناس في بيروت بهذا الضلال، عدد تشرين الثاني سنة ١٨٨١م حتى سارع بالرد عليه شيخ نصراني غيور من لبنان هو الشيخ خليل اليازجي، ونشر رده في عدد كانون الأول من العام نفسه وكان رده يتلخص في نقطتين :

أولاهما : أن اتخاذ العامية للكتابة فيه عدم البناء التصريفي للعربية من أساسها، وإضاعة كثير من جهود المتقدمين، والأخرى: أن عامة الناس وجهالهم يفهمون العربية الصحيحة الفصيحة.

وجاء الاستعمار الإنجليزي إلى مصر، واتسع في ظلاله الكئيبة نشاط المبشرين ودعاة الهدم فخرج من مصر ألماني يدين بالولاء للإنجليز، اسمه: كارل فولرس، ألف كتابا سماه: اللهجة العامية الحديثة في مصر، صدر سنة

١٨٩٠، ردد فيه ضلالات «سبيتا» من وصف العربية بالجمود والصعوبة، وتشبيهها باللاتينية، كما شبه العامية بالإيطالية.

ثم جاء الداهية وليم ويلكوكس.

وهو مهندس ريّ انجليزي، مبشر، أو بعبارة أدق منصِّر، ولبس عباءة الإصلاح اللغوي لينفث خلاله سمومه، فأضاف لبنة فاسدة في بناء هذه الدعوة الضالة.

ألقى محاضرة لبس فيها ثوب المصلح الوفي، الحفِيّ بلغة العرب، الراغب في نهضتهم، وأكد أن سر تأخر العرب جمودُ اللغة الذي حال بينها وبين ملاحقة حضارة العصر.

ثم يعلن للناس أن من قدم ترجمة لهذه المحاضرة باللهجة المصرية، له مكافأة مقدارها أربعة جنيهات أفرنكية.

ثم جاء «سلدن ولمور»

وهو قاض إنجليزي في المحاكم المصرية، وأراد أن يدلي بدلوه بين الدلاء

ألف عام ١٩٠١ كتابا سماه: العربية المحلية في مصر، دعا فيه إلى اتخاذ العامية لغة سائدة، وهدد بأن الأمة إذا لم تستجب لندائه فالنتيجة انقراض العامية والفصحى، وحلولُ لغة أجنبية محلهما.

والعجيب أن أول من سارع إلى تأييد هذا الكتاب أصحاب المقتطف، وأظهروا ألمهم لضياع الفرص بل ذكروا أن محمد علي باشا جد العائلة الخديوية لو اهتم بكتابة اللغة المحلية لمصر والشام وجعل الكتابة بها وحدها، لما وجد في ذلك كبير مشقة.

وبذلك كشفوا عن سوء نواياهم.

وفي هذا الوقت الذي تجاوبت فيه اصداء الدعوات الضالة، خرج شاعر النيل حافظ إبراهيم إلى الساحة الأدبية وقد تأجج وجدانه بما سمع من ضلالات القوم، وقدم هذه القصيدة الرائعة، التي تعد من فرائده الخوالد التي لا

زلنا نحس بجدة معناها، وحيوية فكرتها، تحدث عن مزايا هذا اللسان فقال :

أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي؟
وسعت كتاب الله لفظا وغاية ... وما ضقت عن أي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات

ثم يشير إلى مؤامرة المبشرين والمستعمرين وأذنابهم، فيقول على لسان لغته :

ايطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادي بوأدي في ربيع حياتي
ولو تزجرون الطير يوما علمتمو ... بما تحته من عثرة وشتات

ثم تعاتب اللغة أبناءها فتقول :

أيهجرني قومي عفا الله عنهم ... إلى لغة لم تتصل بسرواة؟
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى ... لعاب الأفاعي في مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة ... مشكلة الألوان مختلفات

والشاعر هنا يعني اللغة العامية ودعاتها
وعلى لسان اللغة ينتقد الصحافة فيقول :

أرى كل يوم بالجرائد مزلقا ... إلى القبر يدنيني بغير أناة
وأسمع للكتاب في مصر ضجة ... فأعلم أن الصائحين نعاتي

ثم تتذكر التاريخ المجيد فتقول :

جزى الله من بطن الجزيرة أعظما ... يعز عليها أن تلين قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظته ... لهن بدمع دائم الحسرات

ثم تصدر قرارها لبنيها فتقول :

إلى معشر الكتاب والجمع حافل ... بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فإما حياة تبعث الميت في البلى ... وتنبت في تلك الرموس رفاتي
وإما ممات لاقيامة بعده ... ممات لعمري لم يقس بممات

موقف مجلة الهلال :

بالرغم من أن هواها تبشيري، فرنسي، صليبي إلا أنها وقفت موقفا معتدلا من هذه المعركة، ففي عام ١٩٠٢ عملت استفتاء مع عدد من المستشرقين والأدباء العرب، مثل المستشرق الإيطالي د. غويدي، والمستشرق الأمريكي ريتشارد لوتهيل، والشاعر خليل مطران، والأستاذ محمد كرد علي، ونقولا حداد، وأنطون الجميل وبعد أخذ آراء هؤلاء الأعلام، انتهت إلى النتائج التالية :

١ ـ المسلمون لا يستغنون عن الفصحى لمطالعة القرآن والحديث، وسائر كتب الدين.

٢ ـ إن العربية ليست غريبة على أفهام العامة إلا إذا أريد التعقيد باستخدام الألفاظ الغريبة، أما لغة الإنشاء العصرية فهي شائعة في الصحف والمجلات يفهمها العام والخاص.

٣ ـ لا يجوز قياس العربية على اللاتينية؟ لأن الفروق بين اللاتينية وفروعها أبعد كثيرا من الفرق بين الفصحى والعامية.

٤ ـ إن الزعم بأن اللغة العربية بدع في اللغات بامتياز اللغة المكتوبة فيها عن اللغة المحلية زعم باطل، فالإنجليز مثلا يكتبون العلم بلغة لا يفهمها عامتهم، وكذلك الفرنسيون والألمان، وغيرهم من شعوب أوروبا.

٥ ـ إن الذاهبين إلى أن تتخذ كل أمة عربية لهجتها العامية هم القائلون بانحلال العالم العربي، وتمزيق شمل الناطقين بالعربية.

هذه نتائج هامة انتهت إليها المجلة في الاستفتاء الذي عقدته، وهي كلها في جانب الفصحى.

وفي عام ١٩٢٦ ظهر ويلكوكس مرة أخرى بعد أن ظل قابعا في جحره نحو أربعين عاما لينفث سمومة مرة أخرى، وفي هذه المرة قام بترجمة الإنجيل إلى العامية المصرية، ثم دعا المصريين إلى أن يقتدوا به فيفعلوا مثل ذلك بالقرآن الكريم.

لكن حيلته لم تَـنْطـل على أهـل الغيرة والفكـر الـواعي من هـذه الأمـة.. وليفعل الرجل ماشاء بإنجيله لأن الأنجيل ليس له لسان خاص، ولم تكن آيتـه في لسانه، وإنما كانت آية عيسى عليه السلام خوارق كونية، على أن اللغـة التي كتب بها من قبل لم تكن خيرا من العامية المصرية.

العملاء والأذناب :

تسلم الراية من وليم ويلكوكس العملاء والأذناب.

وجاء سلامة موسى ليقول العبارة المشهورة: إن الاوربي يقرأ لكي يفهم، أما نحن فنفهم لكي نقرأ. والتي نقلها بدوره من قاسم أمين الذي دعا إلى إلغـاء الإعراب وتسكين أواخـر الكلمات. ومـا درى أن هـذا دليـل على ذكـاء العـربي وفطنته، وحضور بديهته حين يسبق عقله لسـانـه، وأن مثلـه من المستعجمين يصعب عليهم هذا الأمر، والقارىء لكتابه: «اليوم وغدا» يجد فيه ألوانا متنوعـة من هذا الضلال. وقد ظهر في صورة المشفق على لغة العرب.

عجيب هذا الأمر!! أعجمي ومستعجم كلاهما قلق على لغة العـرب، أرأيت من قبل سفاحا تختلج في قلبه مشاعر رحمة على ضحيته؟!!

ونرى هذا الضلال في صور عدة يحاول أن يتسرب إلى معقـل الفصحى: مجمع اللغة العربية، فنجد من أعضائه من يكتب عن اللغة العـاميـة ومنـزلتهـا وأهميتها، ويدعو إلى استخدامها في العلم والبحث، كما نجـد من يتقـدم طـالبـا تيسير قواعد الإملاء، وثالثاً يطالب بالحرف اللاتيني بديلا للحرف العربي.

وفي منتصف القرن الحاضر يمسك لواء الضلالة د. لويس عوض، خليفة لأستاذه التالف: سلامة موسى أصدر، في عام ١٩٤٧ كتابه: بلوتولاند وقصائد أخرى من شعر الخاصة.. يطعن الشعـر العمـودي في الصميم، ويعجب لإصرار المصريين على العربية المقدسة!! هكذا يقول، ثم يُـطمئن المصريين إلى أن الانقلاب اللغوي لم يقوض أركان الدين في أوروبا إنما قوض أركان الكنيسة.

عجيب هذا الفهم الضال، معنـاه بصراحـة أن اللجـوء للعـاميـة، وإبعـاد الفصحى سيقضي على التراث الإسلامي، ولاحرج عنده في ذلك.

والأعجب من هذا كله أن يتسرب الوباء إلى جامعة الدولة العربية، فتصدر اللجنة الثقافية عام ١٩٥٥ كتابا بعنوان: اللهجات وأسلوب دراستها، لأنيس فريحة، جمع فيه عدة محاضرات عن اللهجات العامية في العالم العربي، ووسائل دراستها.

ولا أرى معنى لإحياء اللهجات الإقليمية في ظل الجامعة العربية.

هذه هي الجهود الصريحة، والمباشرة التي تتجه إلى حرب اللغة عن طريق الدعوة إلى اللهجات الإقليمية، وثمة وسائل أخرى غير مباشرة سلكت هذا السبيل، وعملت لتحقيق هذا الهدف الفاسد

فهناك من يدعو إلى لغة وسيطة.

وهناك من يدعو إلى الأسلوب اللبناني التوراتي.

وهناك الدعوة إلى إلغاء الحرف العربي، وتلك ضلالة ما بعدها ضلالة.

والهدف من هذه الدعوات كلها الحيلولة بين هذه الأمة وتراثها، الذي هو مصدر عزها وقوتها.

يقول المستشرق الألماني كامفماير بعد تغيير الحرف العربي في تركيا: إن قراءة القرآن العربي، وكتب الشريعة الإسلامية قد أصبحت مستحيلة بعد استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية».

هذه هي نظرة المستشرق الألماني، وهي صحيحة تماماً، وما إخال من تحمسوا لهذه الدعوة الضالة قديما إلا ساعين لهذا الغرض، وهو أن يتحول تراثنا إلى كائن غير مفهوم، أو يكون فهمه مقصورا على قلة نادرة، ومردودُ ذلك كله يعود بالأثر السلبي على الدين الحق مصدر قوة هذه الأمة.

فالأب أنستاس الكرملي يقترح حروفا لاتينية، تكتب فوق الحرف العربية لتكون بديلة من الشكل.

ولطفي السيد اقترح الحروف اللاتينية بديلا للحرف العربي، وكان مأخوذا في هذا بالضلال الذي فجره كمال أتاتورك عندما ألغى الحرف العربي، وكتب التركية بالحرف اللاتيني.

المستشرق نللينو الإيطالي رفض الفكرة، وأحصى آثارها الوخيمة، وعواقبها الوبيلة على تراث العرب، وماضيهم، ومستقبلهم.

وباءت دعوات الضلال بفشل ذريع، وكان الغُيرُ من أبناء الأمة، الحفظة على تراثها، ودينها ولسانها بالمرصاد لكل أفاك أثيم.

الدعوة إلى تجديد النحو والصرف، وتغريب الأدب :

إن المحاربين للغة القرآن كالحرباء، تلبس لكل حالة لبوسها، فعندما فشلت جهودهم، أو أحسوا بفشلها طرحوا أفكارا جديدة، قد توصلهم لبعض مايريدون من الإفساد.

إن النحو العربي معقد، والإعراب فيه آفة.

وهو في حاجة إلى تيسير، وصدرت عدة حركات تستهدف تطوير النحو أو تجديده.

وانتقدوا العوامل النحوية، وسخروا من العلل.

وانتهت ثورة القوم إلى فشل ذريع، وثبت النحو بقواعده الراسخة (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض).

إنها ما كانت إلا مجرد نزوة ضالة تستهدف حرب القديم أي قديم، وقد ضاق أمير الشعراء قديما بهؤلاء المغيظين من القديم، ولو كان أمجاداً باذخة فقال :

لا تحذُ حذو عصابة مفتونة ... يجدون كل قديم شيء منكرا
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا ... من مات من آبائهم أو عمرا
من كل ماض في القديم وهدمه ... وإذا تقدم للبناية قَصَّرا

أما الأدب العربي فلهم معه شأن آخر.

لقد تميز اللسان العربي بالأدب الصادق، الكاشف عن خلجات النفس، الوفي بمطالب البيئة، المسجل للقيم والمفاخر والمثل، والرافض للسفاسف

والرذائل، وكان الشعر هو جوهر النشاط الأدبي قبل الإسلام يحتل أسمى مكانة، وينزل من القلوب أعظم منزل، والشعراء في القبائل هم الرواد والموجهون.

والشعر عند العرب لم يكن مجرد فن أدبي، وانما هو مستودع قيم وفضائل، وقد قال أبو تمام :

ولولا خلال سنها الشعر مادرى بناة العلا من أين تبنى المكارم

لقد نادوا بهجر عمود الشعر، واتجهوا نحو ما يسمى بالشعر الحر، أو المرسل.

وقدموا البديل.. إنه القصة والمسرحية، هذه الفنون المستعارة من الأدب الاوروبي ولتكون وعاء لظواهر التحليل من حدود الآداب والأخلاق والفضائل.

وإذا كانت الوسائل التي اصطنعها القوم لضرب اللسان العربي فشلت في ميادين عدة فإنها في ميدان تغريب الأدب أحرزت نجاحا لا يستهان به، خفت صوت الشعر العمودي، وتعرض المستمسكون به لحملات ضارية، وانتشرت المذاهب الأوروبية في الأدب العربي دون مسوغ مقبول، حتى أصبحنا نتحاكم إلى مقاييسهم في النقد، وظهرت القصة لتكون ميدانا للقضاء على أخلاق الأمة، واعرافها القويمة، وليعاد عن طريقها ممارسة العامية، وأصبح على ساحتنا أدب لا يخدم أهدافنا الا قليلا، لكنه خدم العامية كثيراً، وخدم ضياع الأخلاق أكثر، وحارب لغة الكتاب العزيز أكثر وأكثر، وبرغم هذا كله لا يزال اللسان العربي شامخاً، وسيظل كذلك. ﴿كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون﴾ ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾.

هكذا اللسان العربي، بشهادة الكتاب الحق لسان العلم ووعاء العقل.

وماذا بعد ؟

اللسان العربي في شموخه ورسوخه يتحدى كل هذه العواصف، ويذود عن حماه بثقة هذه الأعاصير.

وبعد هذه الرحلة الطويلة عبر قرن من الزمان نرصد فيه حربا عاتية وجهت إلى الفصحى في مراحل مختلفة، ومتتابعة، وفي ظل ظروف متشابهة، وأولياء هذه الحرب أصحاب اتجاهات مختلفة لكن وسائلهم جميعا تلاقت عند غاية واحدة.. هي ضرب الفصحى، ويبغون من وراء ذلك تحقيق هدف آخر لا قبل لهم بحربه مباشرة.

كما استبان لنا بجانب ذلك عدة حقائق

أولاها : تنحصر أهداف القوم الذين تولوا كِبْرَ هذه الحرب جيلا بعد جيل فيما يأتي:

أ ـ تحويل الإسلام من سلوك واقع إلى مجرد تراث نحتفي به في المناسبات.

ب ـ تحويل القرآن إلى متحف عندما يستعجم اللسان، ونعجز عن الفهم، ويترك أمره لقلة متخصصة، أو نستجيب لواقع يخططون له، فنكتبه بالعامية، وعندذاك نجرده من دلالة إعجازه، وهي ماثلة في لسانه العربي بجانب تعدد أشكاله عندما نرى قرآنا مصريا وآخر شاميا، وثالثا مغربيا وهكذا.

جـ ـ تمزيق وحدة الأمة العربية التي حملت مشعل الحضارة إلى العالم منذ القرن السابع الميلادي؛ إذ يقْضى على أعظم رابطة تربطهم وهي رابطة اللسان.

د ـ إلغاء التراث بحيث لا يتاح للأمة الاستفادة منه، وبناء حاضر قوي على أساس هذا الموروث العظيم.

٢ ـ هناك خطر آخر أقوى من أي خطر نتصوره، أقوى من خطر الدعوة إلى العامية، ومن خطر الدعوة إلى الحرف اللاتيني، ومن خطر الدعوة إلى تغريب الأدب، وتيسير قواعد النحو والصرف، لأن كل هذه الدعوات تصدى لها أهل الغيرة من أبناء هذه الأمة، لكن الخطر الذي نعنيه يكمن في قبول مبدأ التطوير؛ إذ التطوير هو الشرك الخفي الذي ينصبه الدهاة الغواة إذا فشلت وسائلهم الظاهرة؛ لأن قبولهم مبدأ التطوير يعني أن كل فئة تتخذ لها منهجا في التطوير حسبما ترى بين مفرط، ومفرّط، ومضيق، وموسع، ومتوسط، ولن يقف الأمر

عند حد، وتتسع شقة الخلف بين الأطراف، ويتحقق للقوم ما يريدون تحت شعار معسول براق هو التطوير، مع أن أبرز ما يتميز به اللسان العربي قواعده الثابتة المحكمة، والشاذ عنها لا يقدح في صلاحيتها، والتمسك بهذه القواعد هو السبيل الذي صان وحدة هذه اللغة، وضبط تطورها في ميدان الدلالة وغيرها على امتداد أربعة عشر قرناً، وأصبح القرآن الكريم ـ بسبب ذلك ـ يتلى فينا ويفهم وكأنما أنزل بالأمس القريب، وتراث هذه اللغة في كل المجالات، والذي صنف من قرون طويلة نقرؤه ونحققه ونتذوقه، ولا نجد من ذلك كبير مشقة، وتلك فضيلة امتن الله بها علينا ولم تحظ بها أمة من الأمم، وما كان ذلك إلا بفضل إجماع المسلمين على صيانتها، والحفاظ على قواعدها.

ثالثها.. كل هذه الحملات الشرسة لم تنل شيئا من هذا اللسان، ولا من مسيرته الظافرة، وما حدث من جرائها كان بمثابة سحابة صيف، وكان مصير جهود أهل الفساد وهو مصير قرون الوعل، على نحو ما قال الشاعر :

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها، وأوهى قرنه الوعل

رابعها : العامية ليست مشكلة اللسان العربي فحسب، إنما هي مشكلة كل لسان ينطق به البشر.

والعامية كما أثبت خبراء الألسنة ليست لسانا قائمًا بذاته يتفرد بقواعد وأصول، وأنها فقيرة في مفرداتها، ولا تثبت على حال، ولا توفر وقتا ولا جهداً، وفي الكتابة بها مشقة بالغة، أضف إلى ذلك أنها كثيرة التشعب فهي لا تختلف من إقليم إلى اقليم بل من قرية إلى قرية.

خامسها : فكرة اللغة المتوسطة صورة من صور الخداع في الدعوة إلى العامية.

سادسها : أضع أمامكم بعد هذا البحث معالم طريق العودة الذي يجب أن نسلكه صيانة لأمتنا، ولسانها، ودينها، وأتمثلها فيما يلي :

١ ـ المحافظة على القرآن الكريم، وأخذ الناشئة به منذ نعومة أظفارهم فيسمو بهم، ويقوم ألسنتهم، ويأخذهم بالصوتيات العربية الصحيحة،

ويزودهم بثروة لغوية وأسلوبية واسعة، يحفظونها أول أمرهم، ثم يفقهونها عند بلوغ رشدهم.

٢ ـ لابد أن نضع في اعتبارنا أن الدفاع عن الفصحى دين، وأنها خط الدفاع الأول عن الإسلام، وأعداء الإسلام عندما يضربون الفصحى يحققون ما يريدون بطريق غير مباشرة، كما أنهم يجنبون أنفسهم مغبة الدخول في حرب تحرك ضدهم جهودا إسلامية متنوعة؛ إذ يصورون القضية على أنها قضية لغة يراد إصلاحها، ولا علاقة لها بالدين، لتتم المؤامرة داخل الوطن العربي دون أن يحس بها المسلمون.

٣ ـ لا بد من الحرص على اللسان الفصيح في محاضراتنا ودروسنا، وكل مجالسنا، وليصبح هذا الأمر مسؤولية كل مُـرَبٍّ، وغير مقصور على أستاذ اللغة العربية وحدها.

٤ ـ لابد من التوجيه المستمر لوسائل الإعلام من صحافة وإذاعات مسموعة ومرئية إلى الحرص على اللسان الفصيح بكل مظاهر الفصاحة فيه سواء أكانت صوتية أم تصريفية أم نحوية أم بلاغية.

٥ ـ لابد من عقد مؤتمرات على مستوى العالم العربي تحت عنوان «من أجل حماية الفصحى.. يلتقى فيها أساتذة اللغة العربية والمهتمون بأمرها، وأعضاء المجامع اللغوية لدراسة الوسائل الكفيلة بالحفاظ على هذا اللسان، والدعم المستمر له.

٦ ـ دعم حركة إحياء التراث، والعمل على استمرارها مع ترشيدها، وتنسيق الجهود بين القائمين بها على أرض الوطن العربي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.